المتعصم بالله علي

إجابات مفقودة

" ألم أقل لك مرارًا وتكرارًا أن تعتني بنفسك وبملابسك؟! "

كلمة رددتها مرتين مصحوبةً بنظرة قاسية وكلام حاد.

(معاذ) طفلٌ ذكي في الصف الرابع الابتدائي يحرص دائمًا أن يكون متفوقًا على أقرانه وأن يحصل على العلامات النهائية، هو يحب ذلك ويحافظ عليه جيدًا ولكنَه لا يعلمُ سرَ هذا الحب، ربما كان حبه للأشياء الأخرى أكثر صدقًا وحقيقةً فهو كبقية الأطفال من أقرانه يحب اللعب والمرح.. يحب الرسم والحكايات.. يستمتع بالحدائق الخضراء المليئة بالورود والأزهار، يقفز كالغزال من مكان لآخر في سعادة بالغة... ولكن والديه يحبانه كذلك متفوقًا دائمًا ويحصد المراكز الأولى في صفه ومدرسته، وهو لا يحب أبدًا أن يخيّب آمالهم أو يسبب لهم ضيقًا وانزعاجًا فهو يحبهم.. أو ربما لذلك الاهتمام وتلك الحفاوة التي يحصل عليها ويلقاها من مُعلّميه، فهو الطالب المدلل لديهم وكثيرًا ما ينعكس هذا على معاملتهم الجائرة لباقي زملائه في الصف واتهامهم بالقصور والعجز مقارنةً بهذا الصبي النبيه الفطن.

حرارة الجو قاسية.. ها هو يبدو من بعيد يحمل حقيبته مثقلة.. دخل عليها ظهيرة هذا اليوم متأخرًا على غير عادته فهي تعلم مواعيد انتهاء دروسه جيدًا.. يحمل حقيبته الكبيرة والتي تغطي ظهره تمامًا ومليئة بالكتب التي هي أثقل من وزنه وقد اتسخت ملابسه وكلتا يديه ملطّختان بالطين، كما كان لتلك الحقيبة

نصيبها أيضًا من هذا الطين المبلل.. وقف بين يدي أمه صامتًا خائفًا قلقًا إزاء ما سيلقاه منها من توبيخ وكلمات هو يكره سماعها.. إنه لا يعرف طريقةً أو أسلوبا بعينه يمكّنه من اللعب كما يشاء دونما أن يلحق ملابسه أذى أو ضرر أو حتى قليل من غبار.. كثيرًا ما يفكر في مقولة أمه التي سئم من ذكرها وإسماعه إياها كلما رأته في مثل هذه الحالة (أنت ابن الدكتورة إيمان ولا يصح أن يراك أحدهم هكذا).

فكان لسان حاله يردد داخله: وما علاقة "دكتورة" بـ "أن يراني أحدهم"؟! أو بـ "اللعب والمرح" الذي أحبه؟! وهل لو كنت ابن الدكتورة منى - مثلاً – أكان ذلك شفيعًا لي أن ألعب وأمرح كما يحلو لي؟! وما شأنهم هم وشأني بطريقة لعبي أو هيئتي التي أبدو عليها؟!.. أم أنها كانت تجيد اللعب مع المحافظة التامة على نظافة ملابسها ومظهرها؟!

ماما دكتورة ولا بد وأنها كانت تجيد فعل ذلك حقًا.. ولكن لِمَ لمْ تخبرني أو تعلّمني تلك الطريقة الرائعة الذكية كي أطبقها فألعب وأمرح كيفما أشاء دونما أضايقها أو أسبب لها إزعاجًا؟!...

أسئلةٌ كثيرة جدًا تدور في عقله وتتصارع في نفسه كلّما كان في هذا المشهد وتلك الصورة ولا يجد لها جوابًا.. فكر من ذي قبل أن يخرج بعضًا منها خارجه ليلقي بها على مسامع أمه علّهُ يجدُ عندها جوابًا.. فعادت إلى كرتها من التوبيخ والنهر والزجر والوعيد.. ومن

حينها قرر أن يكتفي بوجودها معه وبداخله فقط حتى لو كانت تؤرقه في يقظته أحيانًا أو تزعجه في منامه أحيانًا أخرى.

انسحب في هدوء من بين يديها متجهًا إلى المرحاض كي يغسل وجهه ويديه ويستبدل تلك الملابس المتسخة بغيرها، فاستوقفه ذلك الصوت الحاد المزعج: (سوف تقوم بتنظيفها بنفسك لئلا تعود إلى تلك الفعلة مرة أخرى).

(حاضر يا أمي).. أجابها دون أن يستدير بوجهه حتى لا يرى وجهها المليء بالغضب والسخط والكراهية، واستمر في خطواته الصغيرة في هدوء ريثما يخلو بنفسه منفردًا في غرفته الصغيرة، وغمرته نوبة من البكاء المتواصل، فهذه المرة هو لا ذنب له فيها ولم يكن له نصيبٌ من اللعب والمرح يعدُ ثمنًا مرضيًا – على الأقل – لكل ما لاقاه منها!

خرجت في الساعة العاشرة كعادتها كل صباح.. هي تعمل في المستشفى الخاصة نهارًا وفي عيادتها الخاصة ليلاً.. ظروف الحياة أحيانًا تضطرنا أن نغيب عن أبنائنا الساعات الطوال حتى نلبّي احتياجاتهم ورغباتهم، وكأن (احتياجهم النفسي لوجودنا بجانبهم) قد أعطونا صكًا بالاستغناء عنه واستبداله بتلك الحاجات المادية الحقيرة!

(تفضلي يا دكتورة)... فتح لها باب سيارتها مبتسمًا.. (عم سعيد) الرجل الطيب المبتسم دائمًا، أعطته ما وقعت يداها عليه من

جنيهات على تابلوه السيارة، وما إن همت بالانطلاق حتى جاءها صوت (عم عبده) البستانى صارخًا: (يا دكتورة إيمان.. يا دكتورة إيمان).. فتحت زجاج سيارتها مطلةً بوجهها الساحر ونظارتها السمراء التي تزيدها رونقًا وجمالاً وقالت في تعجل وتأفف: (أُأمر يا عم عبده)؟!.. (الأمر لله وحده يا دكتورة).. كنت فقط أود أن أشكرك شكرًا خاصًا وأشكر ابنك هذا الطفل الرائع الجميل (معاذ).. أصابتها دهشة واستغراب من الكلام من عم عبده فخلعت نظارتها للتفهم الأمر.

كنت أقوم بنقل قصاري الزهور كعادتي كل يوم إلى حيث الجانب الآخر من الحديقة كي تستكمل نموها من خلال امتصاصها لأشعة الشمس المشرقة، فانزلقت قدماي فجأة لأجد نفسي مرتميًا بين تلك الأكوام الطينية المبتلة وحولها الأزهار الصغيرة الرقيقة والتي غطى رونقها وجمال زينتها ذلك الطين المبتل.. رآني في تلك الصورة فجرى نحوي مهرولاً وهو حائر لا يدري ماذا يجب عليه أن يفعل.. أيمسك بيدي حتى أنهض من رقودي أم يُنقذ تلك الزهيرات الصغيرات من مستنقع الطين الذي حلَّ بها؟! وهو يردد قائلا لي: لا عليك يا عم عبده.. سوف يصبح كل شيء على ما يرام، وأخذ يلملمها ويعيدها في قصاريها ثم ساعدني على النهوض واسترجاع القصريات في تلك العربة الصغيرة المخصصة لنقلها ثم ابتسم في وجهي غير مبالٍ بما أصاب ملابسه من ضرر واتساخ ولَّوح لي بيديه يودعني في فرحة وسعادة تغمره وتغمرني وكأن براءته الطفولية قد

انتقلت عبر الأرواح فأصابت روحي، فوجدتُنى مبتسمًا له ابتسامة غمرتني بسعادة عجيبة سرت في كياني لا أعلمُ لها سرًا حتى اللحظة!

حاولت أن تكتم دموعها فشكرته بحرارة وانصرفت وهي شاردة البال.. غارقةٌ في أفكار تهزها يمينًا وشمالاً..

ظلت على هذه الحالة لساعات طويلة في العمل وهي في شوق غريب إلى طفلها لم تلحظه أو تشعر به من قبل.. لن تستطيع أن تكمل دوامها على هذه الحال، فطلبت إذنًا بالانصراف مبكرًا، وعادت إلى منزلها شاردة الذهن ولكنها بدت وكأنها أكثر هدوءًا.. تفرك يديها بشدة.. تنظر من النافذة.. تنتظر عودته.

رجع كعادته يبحث عن أمه باحثًا لديها عن ابتسامة حب أو حضن يشعر معه بالدفء والأمان.. هكذا هم الأطفال دائمًا لا يحملون بصدورهم شيئًا، يعيشون لحظتهم بكاملها غير منقوصة.. حياتهم ليست أجزاء وإنما هي حياة كاملة وهذا بعينه ما يسميه الكبار (براءة الأطفال)، فبراءتهم تكمن في حياتهم الحقيقية غير الزائفة،

دست رأسه في صدرها.. تُقبلّهُ.. تلمسه.. تربت عليه.. كأنها تبدي أسفها.. لكن عقله الصغير لم يفهم سر تحولها، وقبل أن يستقيم له المعنى يسمعها تقول: أحبك يا معاذ.. أحب أفعالك.. لعبك ومرحك.. أحب ثيابك المتسخة قبل النظيفة.. أحب مذاكرتك

واجتهادك.. تفوقك وتميزك.. ابتسامتك وضحكتك.. أحبك لا لشيء بعينه.. أحبك لأنك ولدي.. أحبك فقط لأنني أحبك.

أغمض عينيك يا حبيبي فقد جلبت لك مفاجأة.. أغمض عينيه وقفز إلى رأسه العديد من الأشياء الجميلة والألعاب التي يحلم بامتلاكها والاستمتاع بها يومًا من الأيام.. افتح عينيك.. يا الله (الاسطوانات المضيئة الطائرة) التي أحبها كثيرًا ولطالما تمنيت امتلاكها.. أحبك كثيرًا كثيرًا يا أمي.. وأنا أحبك أكثر يا معاذ، وفرحت كثيرًا لحسن صنيعك البارحة مع (عم عبده) ومساعدتك إياه، وسوف أقوم أنا وأنت بشراء ثياب جديدة لك سوف تختارها أنت بنفسك مكأفاة لك.. قال بصوت بريء: وثياب أيضًا لهذا البستاني الذي أصابه ما أصابه من أجل إسعادنا.. لم يتمالك نفسه إلا مرتميًا بين أحضان أمه في شوق وحنان بالغ.